

الدراسات السوسيولوجية في الجزائر بين الواقع والمأمول جامعة تلمسان

- عمّار مبروكي (جامعة خنشلة)

Mabroukia65@hotmail.fr

- تأطير: أ.د. مصطفى عوفي (جامعة باتنة)

ملخص

تهدف هذه الدراسة إلى الممارسة السوسيولوجية في الجزائر بين الواقع والمأمول لاسيما بعد التغيرات والتحويلات التي شهدتها الجزائر والعالم العربي، وهي دراسة وصفية للواقع السوسيولوجي في سياقه التاريخي. وقد حاولت الدراسة التطرق لمراحل تطور الممارسة السوسيولوجية منذ الاستعمار إلى يومنا هذا وإلى التحديات المستقبلية لدراسة الواقع الاجتماعي والمساهمة في تنمية المجتمع.

وتوصلت الدراسة إلى مجموعة من النتائج أهمها :

- أن هذا العلم لم يرق إلى المستوى المطلوب ولم يثبت وجوده على الساحة الأكاديمية وتوجيه البحوث في خدمة المجتمع.

- انهيار منظومة القيم عن طريق الجهل بقيمة العلم كقيمة اجتماعية حضارية.

- أن أغلب البحوث السوسيولوجية تظل سحينة الرفوف في المكتبات والمخابر الجامعية.

- أن أغلب الدراسات تعتمد على النظريات الغربية المستوردة والتي لا تتوافق وخصوصية المجتمع.

Résumé

Cette étude vise à la pratique sociologique en Algérie entre la réalité et les espérances, notamment après les changements et les transformations qui à connue l'Algérie en particulier et le monde arabe en général, cette étude décrit la réalité sociologique dans son contexte historique.

L'étude a essayé d'adresser ou différents stades de développement de la pratique sociologique depuis la colonisation jusqu'à nos jours et les défis dans les perspectives d'avenir pour l'étude de la réalité sociale et de contribuer au

développement de la société.

L'étude a révélé les résultats suivants:

- Que cette science n'a pas prouvé sa présence sur la scène académique en mettant c'est recherches pour résoudre les problèmes de la société
- L'effondrement du système de valeurs de la science sociale en tant que valeur de la civilisation.
- Que la plupart des recherches sociologiques resterait dans les étagères universitaires et dans les laboratoires.
- Que la plupart des études reposent sur les théories occidentales qui ne prennent pas la spécificité de la société arabo-musulmane.

مقدمة

يجمع المفكرون السوسيولوجيون بمختلف مشاربهم وتوجهاتهم الإيديولوجية على أن نظريات علم الاجتماع جاءت كرد فعل لمشكلة النظام في المجتمع وبالتالي فهي مرتبطة بالواقع الاجتماعي الذي تفسره، لأن النظرية ما هي إلا مرآة عاكسة للواقع الاجتماعي التي نشأت فيه، غير أن التنظير للواقع ينطلق من مسلمات النظام العام والذي يكون مرتبط بالتوجهات الإيديولوجية، ولا يخفى على أحد أن النظريات التي تدرس في جامعاتنا هي في الحقيقة ما أنتجه الغرب في بيئتهم واستوردناها بفعل مقصود أو غيره لتفسير الواقع الاجتماعي، وبالرغم من التراث الفكري التي تحويه هذه النظريات إلا أننا لا نستطيع أن نسقطها على واقعنا الاجتماعي وفي هذا السياق يقول مصطفى ناجي "أن ظهور علم الاجتماع في العالم العربي لم يكن تلبية لحاجة مجتمعية معينة، ولكنه كان تقليدا للنظام الأكاديمي الغربي...." وقد أدى ذلك إلى فترة محاكاة وتقليد للدراسات الغربية دون ابتكار أو تجديد.¹

فعلم الاجتماع في العالم العربي لا زال لم ينل الاعتراف الكامل كمجال معرفي خاص يسعى لحل مشكلاتها المتفاقمة.²

قضايا العنف بشتى أنواعه، وصراع القيم، وظهور حركات اجتماعية في معظم البلدان العربية وما أنتجته من اضطرابات داخلية عجزت الدراسات الاستشرافية استقراء الواقع والتنبؤ به، بسبب انفصالها عن المجتمع وعدم قدرتها على إدراك إمكانات التغيير الكامنة في هذا السياق تأتي ورقتنا البحثية لنحاول من خلالها إبراز دور علم الاجتماع في دراسة واقع الممارسة السوسيولوجية في الجزائر ومدى ارتباطها بالواقع الاجتماعي في ظل التغيرات الراهنة.

1 : الإطار المنهجي للبحث .

1- 1 : منهجية الدراسة .

تنتمي الدراسة إلى الدراسات الكيفية واستخدم الباحث المنهج الوصفي التحليلي في دراسته لواقع الدراسات السوسولوجية في الجزائر و آفاقها المستقبلية لخدمة المجتمع.

ويعد المنهج الوصفي التحليلي أحد أشكال التحليل والتفسير العلمي المنظم لوصف الظاهرة وصفا دقيقا كما توجد في الواقع، ويعد أكثر المناهج استخداما في العلوم الاجتماعية.³

كما استعان الباحث بالمنهج التاريخي لتتبع ظاهرة الممارسة السوسولوجية في الجزائر منذ نشأتها ومراحل تطورها منذ الحقبة الاستعمارية والعوامل التي أثرت فيها وذلك بالرجوع إلى أصلها وتسجيل التطورات التي طرأت عليها بهدف تفسير الظاهرة في سياقها التاريخي.

1-2 : أهمية الدراسة.

تكمن أهمية الدراسة في معرفة واقع الممارسة السوسولوجية في الجزائر باعتبارها جزءاً لا يتجزأ من العالم العربي الذي يعيش حركات اجتماعية واسعة، أفرزت عدة تناقضات اجتماعية غير أن علم الاجتماع لم يستطيع تفسير هذه الحركات والتنبؤ بها في المستقبل وأهمية الدراسة تكمن:

- أهمية الموضوع من حقل المعرفة العلمية، وأهداف العلم في التحليل والتنبؤ ليصل إلى تقييم النتائج.
- تسليط الضوء على دور علم الاجتماع في حل المشكلات الاجتماعية وربطه بالواقع الاجتماعي.
- أنها تجري في مرحلة زمنية يمكن أن يقال عنها أن المنطقة العربية تعيش تحديات مستقبلية تراهن على فهم أزمتها الاجتماعية و إيجاد حلول لمشكلاتها المتعددة من أجل الحفاظ على بنيتها الاجتماعية ومن ثمة استقرارها الاجتماعي، الأمني والسياسي.

1-3 : إشكالية البحث.

إن المتتبع لسيرة علم الاجتماع في الوطن العربي منذ القرون التي خلت يلاحظ بدون شك أن بدايته كانت تصور الواقع الاجتماعي والسياسي والاقتصادي لحقبة زمنية معينة، وترجع الإرهاصات الأولى إلى العلامة "ابن خلدون" الذي يرجع له الفضل في تأسيس علم اجتماع سماه بعلم العمران البشري، وقد وجد تفسيرات للنظم الاجتماعية في الوطن العربي، وأبدع في تحليله للوضع الاجتماعي في حيز زمكاني معين (المغرب العربي)، غير أن هذا الوضع لم يجد ضالته ولم يدم طويلا، حيث كانت المجتمعات العربية تعيش انحطاط فكري وبقي الفكر الخلدوني في حيز مكاني معين ولم يراوح مكانه بل اكتنفه الجمود، وفي المقابل اهتمت ثلة من المفكرين الغربيين في القرن الثامن عشر والتاسع عشر أمثال " هوبز وكونت " وغيرهم بالتغيرات الاجتماعية والاقتصادية التي يشهدها الغرب خاصة بعد ظهور الثورة الصناعية وما أحدثته من تغير في البنى والأنساق الاجتماعية حيث قاموا بإيجاد تفسير للظواهر

الاجتماعية الجديدة والغير مألوفة من خلال أفكار ونظريات تسعى لتفسير واقع مجتمعاتهم تفسيراً علمياً للظواهر الاجتماعية، وأصبح هذا العلم هو الوحيد الذي باستطاعته معرفة ودراسة أحوال الواقع الاجتماعي وبالفعل تمكن هذا العلم من السيطرة على باقي العلوم الأخرى في الغرب ودامت هذه السيطرة لفترة طويلة، في حين اكتسح على الاجتماع المجتمعات العربية على يد المستعمر الذي احتل تقريباً معظم الدول العربية ولفترة طويلة، والجزائر إحدى هاته الدول التي اعتمدت على إنتاج ثقافة استعمارية من خلال استيراد نماذج الجامعات الأوروبية، مما أضفى عليها صبغة غربية مبنية على التراث الغربي من خلال الدراسات الانثروبولوجية التي عملت على تكريس ثقافة استعمارية، وظل هذا الفكر سائد ولفترة طويلة، وبعد الاستقلال عرف المجتمع الجزائري تحولات عميقة، اجتماعية، سياسية و اقتصادية أدت إلى محاولة تجسيد أفكار تفسر التحول غير أنها اتسمت بالتذبذب بين إنتاج محلي ضعيف مقارنة بالواقع الاجتماعي وبين إنتاج غربي منقول لا يجسد خصوصية المجتمع والتغيرات الاجتماعية لاسيما في العقد الأخير والتي عرفت حركات اجتماعية تنذر بخلل في الأنساق الاجتماعية تستوجب التحليل والتمحيص ومن خلال هذا الطرح تدرج ورقتنا البحثية في طرح التساؤل الرئيسي الذي مفاده: ما هو واقع علم الاجتماع في الجزائر؟ وما مدى مساهمته للأحداث الاجتماعية على الصعيد الإقليمي؟.

للإجابة على هذا التساؤل ارتأينا أن نقسم ورقتنا البحثية إلى عدة محاور رئيسية وأخرى فرعية تتمثل في :

- مقدمة
- الإشكالية
- مفهوم علم الاجتماع
- سوسيولوجيا العالم العربي بين الهيمنة الغربية والتحرر الفكري
- المأمول من الدراسات السوسيولوجية ومدى مساهمتها للأحداث الاجتماعية
- خاتمة

2 : مفهوم علم الاجتماع.

2-1 : يعرفه " أنتوني غيدنز " ANTONU Geddns " في كتابه " علم الاجتماع " على أنه " العلم الذي يعنى بدراسة الحياة الاجتماعية والجماعات والمجتمعات الإنسانية، إنه مشروع شديد التعقيد لأن موضوعه الأساسي هو سلوكنا ككائنات اجتماعية، يتراوح بين اللقاءات العابرة بين الأفراد في الشارع من جهة واستقطاب العمليات الاجتماعية العالمية من جهة أخرى " 4

2-2: ويعرفه عاطف غيث على أنه " المصطلح الذي يطلق على أي نوع من الدراسة تهتم بالإنسان والمجتمع إلا أن المصطلح بمعناه الدقيق يشير إلى تطبيق المناهج العلمية لدراسة شبكة العلاقات الاجتماعية المعقدة وصور التنظيم التي تمكن الأفراد من العيش معا في المجتمع " ⁵

وهناك عدة تعاريف نذكر منها :

- التعريف العلمي الذي يعرفه " بعلم المجتمع " .

- أما تعريف " تيدوركابلو " الذي يعرفه ب " الدراسة العلمية للعلاقات الإنسانية وتداعياتها " .

3-2: في حين يعرفه كل من " أوخبرن و نيمكون " على أنه " الدراسة العلمية للحياة الاجتماعية "، أما " بترمين سوروكين " فيعرفه على أنه " دراسة الخصائص العامة والمشاركة بين كل أنواع الظواهر الاجتماعية" ⁶.

ويمكن تخصيصه في سياق حضاري آخر كما عرفه " ابن خلدون " على أنه " دراسة العمران البشري والاجتماع الإنساني " .

التعريف الإجرائي :

من الصعب إيجاد تعريف جامع مانع لعلم الاجتماع ولا يمكن حصر موضوعاته لاتساع مجاله المعرفي إلا أننا يمكن القول أنه العلم الذي يختص بدراسة كل ماله علاقة بالمجتمعات الإنسانية.

4 :سوسيولوجيا العالم العربي بين الهيمنة الغربية والتحرر الفكري.

إن الدارس لواقع الممارسة السوسيولوجية في العالم العربي يستشف من الوهلة الأولى أن هذا العلم بدأ بولادة مشوهة له، باغتراب العلماء العرب عن واقع مجتمعاتهم وانغماسهم في النقل عن الغرب، فكانت التبعية الغربية هي المسيطرة، إنها نشأت بمفهومها الغالب كما يسميه " فضيل دليو " بقوله " لقد ترعرع علم الاجتماع في بيئة الإنسان الغالب بمفهومه (الحضاري وليس الجغرافي) و أن الإطار المعرفي لهذا الأخير هو السائد والمهيمن في الفكر والبحث دون غيره من أطر الحضارات الأخرى " ⁷.

وتعود هذه التبعية إلى الحقبة الاستعمارية كون جل البلدان العربية كانت تحت وطأة الاستعمار الغربي لهذا فجل المحاولات النظرية ذات صبغة غربية ومرتبطة أشد الارتباط بالمجتمعات الغربية ومعبرة عن خصوصيتها ومشكلاتها الاجتماعية، بالرغم من أن هذه النظريات تتعرض في مهدها إلى انتقادات حادة كونها لم تعد قادرة على استيعاب التغيرات في الواقع الاجتماعي، والسبب في اعتقادي يعود إلى الارتباط التاريخي والتمثلات الاجتماعية للباحث العربي

الذي وجد في المجتمع الآخر رصيد نظري لا يستهان به بالإضافة إلى حداثة هذا العلم في جانبه المنهجي العلمي والذي لا تتجاوز مدة دراسته في الجامعات العربية خمسة عقود من الزمن، فأغلب النظريات المتداولة على الصعيد العربي هي إفراز الفكر العلمي الغربي في زمن أحوج ما تكون الساحة العربية فيه لبدليل يتناول الواقع العربي بكل خصوصياته وتجلياته.⁸

إن معظم النظريات الغربية المهيمنة على التراث النظري والطرق المنهجية للبحث لها سياقاتها الاجتماعية والفكرية والايديولوجية الخاصة بها، فالعلوم الاجتماعية الغربية المهيمنة نابعة من حضارة مختلفة المرجعية والأسس العقائدية وقد هيمنت النظريات الغربية بفعل التقدم التكنولوجي والمرجعية التاريخية ذات الطابع الاستعماري والتي تخلف تبعية كما سبق الذكر وهذا ما قصده " ابن خلدون بقوله " " أن المغلوب مولع بتقليد الغالب " ومن هذا المنطلق يمكن القول بصعوبة تعميم النظريات والقوانين الاجتماعية وهذا لغياب الصدق الامبريقي وإهمال الخصوصية، رغم كون المنظومة المعرفية الغربية تدعي الحيادية والموضوعية لإضفاء صبغة العلمية.⁹

وبقي الجهد الفكري في ميدان العلوم الاجتماعية منحصر بين التجربة والاقتراس والمحاكاة، دون أن يتجاوز ذلك إلى مرحلة الفكر الذاتي في ضوء خصوصيات المجتمع العربي، وتركز اهتمام الباحثين والعلماء على قضايا قد تكون ذات أهمية في بلادها الأصلية بينما تفتقر إلى الأهمية في مجتمعاتنا العربية.

بالإضافة إلى الواقع السوسولوجي في العالم العربي الذي يعيش أوضاع متأزمة، وإننا نتفق مع "حجازي" بقوله أن الأزمة الحقيقية ليست في علم الاجتماع ذاته بل في القائمين عليه والقضايا الاجتماعية التي تدرسها وسائل الإعلام، علاوة على إهمال الدول العربية لهذا العلم التي ترى فيه أنه لا يمثل قيمة للمجتمع وأن البحث في مجاله يتصف بالأوضاع المشقة ويضيف " حجازي " بقوله : " أن علم الاجتماع في الدول العربية أصابه الفقر النظري والعقم في الإنتاج العلمي وانفصاله عن مجتمعاتنا، وجهل العلماء العرب من نقد النظريات الأجنبية وحساسية المثقف بالسلطة.¹⁰

كما أنه لا يشكل أولوية سياسية لهذه الدول ولا ترصد له الإمكانيات المادية اللازمة، فقد ورد أن ما ينفقه العالم العربي في مجال البحث العلمي لا يتعدى 4 دولارات سنويا في مقابل 930 دولارا في أمريكا و 972 دولارا في إسرائيل، وما يقارب 950 دولارا في أوروبا، وأن ما يتم إنفاقه في 22 دولة عربية مجتمعة على البحث جاء في تقرير المعرفة العربي لسنة 2011 أن نصيب المواطن العربي من إصدارات الكتب يشكل 04 % من نصيب المواطن الانجليزي و 05 % من نصيب المواطن الإسباني.¹¹

في حين ينصب الاهتمام بالدرجة الأولى على مشاريع البحث في مجال العلوم التجريبية أو ما يسمى باستيراد التكنولوجيا وهو ما يدخل في إطار السياسة العامة للسلطات، ولقد ورد في تقرير الأمم المتحدة للتنمية البشرية لسنة 2003 أن العالم العربي يمثل 05 % من سكان العالم لكنه ينتج فقط 1.1 % من الكتب العلمية والثقافية،¹² وعلى الرغم من ذلك فإن الدراسات الاجتماعية العربية ليست بالواقع المظلم لأن هناك محاولات من داخل المجتمعات العربية قصد إيجاد مدخل نظري خاص ولكنه يبقى مرتبط بالسياق العام لعلم الاجتماع أي أن يكون منسقا معه، وتبقى هذه المحاولات معزولة وغير مستمرة، فظهرت بعض الإسهامات من أجل توطين أي تأصيل أو أسلمة علم الاجتماع العربي، وقد طالب مؤيدو هذا المدخل الجديد بضرورة إصلاح العلوم الاجتماعية وإعادة صياغتها في ضوء التصور المنهجي الإسلامي الذي يبقى الذخيرة المعرفية التي يستوجب على الباحثين تحليل وتمحيص المدخل وإسقاطه على الواقع المعاش.

5 : واقع الممارسة السوسيولوجية في الجزائر.

إن المتصفح لسيرة علم الاجتماع في الجزائر يلاحظ أن مرحلة نشأته من طرف مجموعة من الباحثين الفرنسيين وعلى رأسهم " أوغيس كونت " والتي تنحصر بين السنوات 1830 و 1843 و التي تتزامن مع تاريخ الاحتلال الفرنسي للجزائر ويكون بذلك قد دخل إلى الجزائرية من طرف مجموعة من الباحثين الفرنسيين، وكان استغلاله لأهداف استعمارية عسكرية لتكريس الاستعمار وبسط نفوذه و تجسيد مطامعه لينتقل بعد ذلك للجامعات الجزائرية كعلم قائم بذاته لذلك يستوجب علينا تقسيم مراحل الممارسة السوسيولوجية في الجزائر إلى مرحلتين أساسيتين تندرج تحتها مراحل فرعية وهما :

- المرحلة الاستعمارية أو ما يسمى بالسوسيولوجيا الكولونيالية .

- مرحلة الممارسة السوسيولوجية بعد الاستقلال.

5- 1 : المرحلة السوسيولوجية الكولونيالية.

وهي تلك الدراسات والأبحاث التي أجريت خلال المرحلة الاستعمارية في الجزائر والتي سماها جمال معنوق بالسوسيولوجيا الكولونيالية، موضوعها دراسة المجتمع الجزائري ومعرفة الميكانيزمات التي تتحكم في البنى الاجتماعية والثقافية قصد خدمة أهداف استعمارية.¹³

ولم تقتصر الدراسة السوسيولوجية الكولونيالية على الجزائر فحسب بل امتدت إلى شمال إفريقيا والمجتمعات المغاربية على الأخص، ولقد شكلت مقارنة جديدة في ربوع البلدان المغاربية فالإرث السوسيولوجي يكشف لنا اقتران

ظهور البوادر والإرهاصات الأولى للسوسولوجيا الكولونيلية في مهد أطماع المستعمر الذي رصد مجمل الظواهر الاجتماعية على جميع المستويات بما في ذلك الروابط الاجتماعية والأسرية والقبلية.

إن مدة الاستيطان التي تتجاوز قرن في الجزائر ساعد المستعمر على تحصيل معرفي كمي ونوعي تجسد في الأبحاث والدراسات التي أنجزتها البعثات العلمية لبعض الرحلات والقادة العسكريين والسوسولوجيين، ولقد مكن الاحتلال إلى تطوير وتعميق معرفته بالبلدان المجاورة (البلدان المغاربية) من خلال المعطيات المستخلصة من طرف المؤرخين والسوسولوجيين لتكوين جهاز نظري عن المنطقة ككل واستخلاص نتائج تم استغلالها عن طريق زرع الأفكار الهدامة التي تقول أن الجيش الفرنسي لا يقهر ونشر مفاهيم حول البدع والخرافات وتجسيد سياسة التجهيل والتعصب للعائلة والقبيلة.¹⁴

وقد نجح في استعمال ورقة التقسيم العرقي للتركيب البشرية لمكونات الشعب من عرب وبربر وهو ما قام به "ماسكراي" "Masquerey" في دراسة المجتمع الميزابي عن طريق الملاحظة بالمشاركة والتعرف على عاداتهم وانتمائهم العرقي والعقائدي والدعوة إلى توظيف ثنائية البربر/العرب وهي ثنائية استندت عليها لحماية تغلغلها وهي ثنائية لها بعد عرقي لها نتائج عميقة ومؤثرة للسيطرة الفرنسية على المجتمع أما من الجانب البحثي فقد تم تأسيس مدرسة للآداب بالعاصمة الجزائر سنة 1879 تحت إدارة Renn basset، المخبر الرئيسي للفكر الكولونيالي حول المغرب العربي، كما استطاع "جاك بيرك" "Jacques Berque" الذي استطاع أن يقوم بدراسات حول المجتمع الجزائري من خلال الثقافات الفرعية للمجتمع القبائلي ودراسة اللغة كأحد الثوابت التي يجب تفكيكها استنادا إلى مقولة "مالينوفيسكي" على أن البحث لا بد أن يمر بمعرفة لغة الغير وأعرافه وما يمكن قوله أن السوسولوجيا الكولونيلية نجحت إلى حد بعيد في الوصول إلى أهدافها الاستعمارية وهو تمكين المستعمر من احتلال الجزائر لمدة تفوق قرن و30 سنة.¹⁵

5-2 : الممارسة السوسولوجية بعد الاستقلال .

تأرجحت بين التبعية الاستعمارية والتخلص من التبعية من خلال إصلاح منظومة التعليم العالي وفقا للتوجه العام للسلطات وفق النهج المتبع (النظام الاشتراكي)، لتتراجع في بداية الثمانينات نظرا للاهتمام بالعلوم التحريية على حساب العلوم الاجتماعية وسنوجز هذه الفترة من خلال ثلاثة محطات رئيسية :

5-2-1 : غداة الاستقلال (70/62) وهي مرحلة التبعية الاستعمارية نظرا لنقص الإمكانيات المادية والبشرية وكان من أولويات السلطات آنذاك محاربة الجهل والتصدي له وتجسد ذلك من خلال ديمقطة التعليم الذي ساعد

على انفتاح الجامعة على التحولات التي يشهدها المجتمع الجزائري واعتبر المؤرخون أن هذه الفترة بمثابة امتداد للمرحلة الاستعمارية من حيث تنظيم البرامج وطرق التسيير والتدريس.

5-2-2 : مرحلة إصلاح منظومة التعليم العالي (83/71) وهي فترة التخلص من التبعية وبمناخ نقلة نوعية لمكانة العلوم الاجتماعية فكانت تعبر عن النهج المتبع وهو المرجعية الثورية للثورات الثلاثة، الثورة الذراعية، الثورة الثقافية والثورة الصناعية وهي بمثابة معالم وضعتها السلطة لبطء نفوذها ورقابتها على التنظيمات الطلابية لتكون أداة لخدمة النهج الإيديولوجي المتبع، وقد ظهرت بعض التخصصات التي لها علاقة بالتوجه السياسي نذكر منها علم الاجتماع الريفي، الحضري و علم الاجتماع الصناعي كان الهدف منها خدمة التنمية وفق نهج مرسوم مسبقا وإنما تتفق مع جمال معتوق بقوله " أن أغلبية الدراسات والبحوث سواء المنجزة من طرف الأساتذة والطلبة كانت تتصف حول الثورات الثلاثة التي تبنتها الدولة الجزائرية " ¹⁶.

5-2-3 : مرحلة التراجع والتقهقر (84 إلى يومنا).

واتصفت هذه المرحلة بعدم الاهتمام بهذا العلم جراء الموقف السلبي السلطوي وكان التراجع واضح وذلك لاهتمام السلطات بالعلوم التطبيقية والتكنولوجية لحجة مواكبة الدول المتقدمة واستيراد التكنولوجيا وأن الإشكالية ليست في النظم الاجتماعية والعلاقات السائدة وفي هذا الإطار يقول جمال معتوق " تغير الخطاب الرسمي موقفا وعملا تجاه العلوم الاجتماعية.... وأصبحت كل الأنظار متوجهة نحو العلوم الطبيعية و التكنولوجيا وذلك باسم التنمية والتغير " ¹⁷ بحيث أصبح المسؤولين ينظرون إلى هذا العلم نظرة عدائية احتقارية، بالإضافة إلى الأحداث التي عرفتها الجزائر في نهاية الثمانينات (أحداث أكتوبر 88) والأزمة الأمنية في التسعينات وما خلفته من مأساة وطنية كان لها الأثر البالغ على المسيرة السوسيولوجية تمثلت في هجرة الأدمغة إلى الخارج وتعرض البعض منهم إلى الاغتيالات، وهذه المرحلة بمثابة انتكاسة علم الاجتماع في الجزائر وتميزت ببعض الدراسات لم ترق إلى المستوى ضف إلى ذلك ضعف التكوين ونقص التمويل وقلة المخابر السوسيولوجية والافتقار للدراسات الميدانية التي تحلل الواقع الاجتماعي للنظم الاجتماعية و الثقافية للمجتمع، وهو ما يفسر أن العلوم الاجتماعية لم تنال حقها العلمي والاجتماعي لأن الواقع أثبت أن حقها العلمي والاجتماعي لأن الواقع أثبت أن أغلب الدراسات الاجتماعية محصورة في الجانب النظري دون التطبيقي وهو ما يفقده شرعيته كعلم ميداني، كما أن الباحث الاجتماعي يفتقد لأبسط الظروف التي تسهل له عملية البحث، فحسب دراسة للدكتور " جمال معتوق " تناول فيها واقع علم الاجتماع المغاربي فوجد أن هناك طرق تتحكم في البحث السوسيولوجي فلاحظ أن غلاء المعيشة في الجزائر تؤثر سلبا على

الباحث، فتتحول من عملية شراء الكتب والوسائل المناسبة وأن عدم كفاية الدخل تنعكس سلبا على الجانب الوظيفي حيث ينصرف تفكيرهم في سد الحاجات الأولية فقط.¹⁸

كما أن للإرادة السياسية دور في عقم السياسات الاجتماعية فكثير من الباحثين يرجعون ذلك إلى الظروف السياسية حيث يرى أحد الباحثين أن السياسيين العرب في غالبيتهم لا يميلون إلى الدارسين الاجتماعيين، ولا يشجعون البحوث الاجتماعية بالوطن العربي، ضف إلى ذلك نقص الإحصائيات والبيانات الكمية التي تصدرها مؤسسات الدولة المتخصصة والتي تفتقد للصدق ولا تنشر لأسباب مختلفة فتزيد عمل الدارس صعوبة وإنما نتفق مع " رضوان السيد " في أن الإرادة السياسية تساهم في عرقلة البحوث الاجتماعية وأن فقدان الدعم أو القرار السياسي الضروري لإجراء البحوث تزيد عمل الباحث صعوبة.¹⁹

ويمكن إيجاز أهم أسباب نقص الاهتمام بميدان العلوم الاجتماعية، وعلى رأسها علم الاجتماع إلى:

- الموقف السلطوي من السوسيولوجيا.
- اتهام السوسيولوجين بعدم قدرتهم على الاشتغال على حل المشكلات اليومية.
- محاكاة حلول المشكلات الغربية بالرغم من اختلاف البناء الاجتماعي.
- الجهل بواقع المجتمعات من طرف المشتغلين بالحقل السوسيولوجي .
- تكريس المساواة بين العلوم .
- إهمال الخصوصية الثقافية للمجتمعات.

6 - المأمول من الدراسات السوسيولوجية ومدى مساهمتها للواقع الاجتماعي.

إن الواقع السوسيولوجي الذي عرفته الجزائر ومراحلها المتعددة والذي كان رهينا لعدة عوامل (استعمارية، سياسية، اقتصادية واجتماعية) جعلته يتماشى مع أولويات فرضها الحيز الزمكاني، بل لم يرق لحل وفهم المشكلات الاجتماعية، ويؤكد هذا الطرح الأستاذ "يوسف حنطلي" بقوله "أن الدول العربية المستعمرة لم تكن بحاجة إلى علم الاجتماع بقدر ما كانت في حاجة إلى إيديولوجيا لمقاومة المستعمر ...".²⁰

وبالرغم من أن هذا العلم في الجزائر لم يحظى بالاهتمام الكامل منذ إدماجه في منظومة التعليم العالي، مما أنتج نظرة تشاؤمية والخوف من مستقبله المجهول، ومع أي لا أملك وصفات جاهزة في هذا الإطار، غير أنه بالإمكان

طرح عدة أفكار قابلة للنقاش، فالدراسات الاستشراافية والمؤشرات المستقبلية تتنبأ بالمستقبل لهذا العلم لمسيرة العلوم الأخرى من خلال فهم وتفسير المشكلات والظواهر الاجتماعية الخاصة بالمجتمع الجزائري كما هو، ومن هذا المنطلق والمأمول من هذا العلم هو القيام بدوه الاجتماعي والكشف عن الحقائق في ظل التراكيبات الاجتماعية وفهم أنماط المعيشة والبيئة المادية وخصوصية المجتمع لأن المجتمع الجزائري عبارة عن وحدة واحدة تتكون من أربعة عناصر غير قابلة للتجزئة وهي (الناس، الأفكار، المشاعر، الأنظمة) لذلك فالمجتمع الجزائري يتميز عن المجتمعات الأخرى (الغربية) وأخص بالذكر الارتباط بين المصلحة، المشاعر والأفكار والتي ستكون أساسها العقيدة الإسلامية، على أن تتجاوز الثقافات الفرعية والتيارات المذهبية والعرقية واستغلال ورقة (العرب/بربر، مالكي/إباضي).

والتي هي عبارة عن موروثات استعمارية تفرق أكثر مما توحد و لنا في دول العالم العربي التي اجتاحتها الحركات الاجتماعية وما طرأ عليها من مخاطر الانحراف الطائفي خير دليل على ذلك، ضف إلى ذلك التحولات التي يفرزها الواقع الاجتماعي، لأن البحث السوسيولوجي يعتمد على "المخيلة السوسيولوجية". وهذا لا يتأتى إلا عن طريق:

- السعي لتحديد هوية لم الاجتماع في الجزائر وهي قضية تحتاج إلى تكثيف الجهود للعاملين في الحقل السوسيولوجي.

- أن استيراد نظريات الآخر بدون موافقتها مع خصوصيات المجتمع المحلي يكاد يكون خطأ علميا فادحا غير أن هذه النظريات لا يمكن تجاهلها أو رفضها كلية من باب التعصب.

- التفاعل مع القوى الاجتماعية حاملة إمكانية تغيير المجتمع الجزائري قصد إثراء الوعي وبإمكانه المساعدة على ترتيب الأولويات والمهام المطروحة لهذا العلم.

- تخطي العوائق الإيديولوجية السائدة والتي تتخذ موقفا سلبيا من البحوث الاجتماعية وتوجيهه أحيانا لتمرير الخطاب السائد.²¹

- إيجاد بدائل نظرية للنظريات الغربية والاعتماد على إسلامية المعرفة كبديل للسوسيولوجيا الغربية ولنا خير دليل في كتابات بن نبي وإسهاماته في علم الاجتماع من خلال تناوله لعدة قضايا حضارية واجتماعية (ظاهرة الفقر، علم الاجتماع التاريخي وتحليله للدولة الحضارية) كما أن التصور الإسلامي يستوجب الاعتماد عليه كبديل لدراسة الواقع الاجتماعي للدول العربية بصفة عامة والجزائر بصفة خاصة كونه مأخوذ من صلب القرآن الكريم والذي يقدم ملامح رائدة في النظام الاجتماعي، العدالة الاجتماعية ومعالجة الانحرافات الاجتماعية و إننا نتفق مع "مراد الزعيمي" بقوله

"أنه بعد اتضاح قصور ما طرحته الماركسية والوضعية في رسم مستقبل الحياة الإنسانية، نجد أن كثير من علماء الاجتماع الغربيين يقولون بأنه ليس على علم الاجتماع أن يكون سبيلا للإصلاح الاجتماعي أو طريقة للخدمة الاجتماعية أو منبر لهداية الناس...". ويرى مراد الزعيمي أيضا أنه على عالم الاجتماع نفسه تقع مسؤولية المساهمة المباشرة في التوجيه والإرشاد إلى التغيرات المرغوبة، ويضيف أيضا "أن هنالك التزاما أخلاقيا على علماء الاجتماع التقليدية إزاء الإنسانية.

- على عاتق عالم الاجتماع أيضا تقع مهمة تقويم النشاط الإنساني والسلوكي والاجتماعي وتبيان الظواهر السليمة و المرضية في المجتمع من أجل ترشيده، فعليه أن لا يكتفي بمجرد الوصف والقياس كما هو كائن، فالحياة الاجتماعية حسبه ليست كالجماد والحيوان.²²

كما أن التحديات المستقبلية تستوجب على هذا العالم أن تكون له بصمته الخاصة في عملية التنمية، فالديناميكية الاجتماعية التي يفترض أن يساهم البحث العلمي في حركيتها ودفعها باستمرار نحو التغيير الإيجابي أي نحو حصول التنمية الجماعية وتجاوز التنمية الفردية على حد تعبير "عبد الكريم بن عراب" الذي يرى أن التنمية كانت على المستوى الفردي والشخصي ولم تؤدي إلى التنمية الشاملة في كافة قطاعات المجتمع كما هو معمول في المجتمعات الغربية فقد كشفت الدراسات والتقارير الدولية أن البحث العلمي في الدول الغربية يساهم بين 25% و 45% في النمو في حين لم تتمكن الجزائر في تسجيل سوى 22% كإنجاز خلال المخطط 2002/98 لهذا يفترض أن يساهم البحث العلمي في التغيير الإيجابي عن طريق المشاركة التي صارت ضرورة ملحة للنهوض، بمختلف قطاعات المجتمع الجزائري.²³

خاتمة

جاءت هذه الدراسة كمحاولة للبحث في سبل بناء دراسات سوسيولوجية في الوطن العربي عن طريق رسم مؤشرات مستقبلية لعلم الاجتماع وكان ذلك من خلال تناول واقع الدراسات السوسيولوجية في الجزائر ومدى مواكبتها للتغيرات الاجتماعية على المستوى المحلي والإقليمي بصفاتها جزء لا يتجزأ من العالم العربي.

ورأينا أنه من الضروري التطرق لتطور الممارسة السوسيولوجية في سياقها التاريخي للإحاطة بالموضوع، و خلال الدراسة الوصفية لموضوع البحث توصل الباحث إلى عدة نتائج هي :

- تجاهل المؤسسات الرسمية للدور الحقيقي الذي يمكن أن يلعبه علم الاجتماع في التأثير الإيجابي والتحويلات الجارية لأن الأزمة في الحقيقة هي أزمة إنسان.

- أن التصنيف لهذا العلم في منظومة لتعليم العالي والبحث العلمي تصنيف عشوائي.
- أن هذا العلم في الجزائر لم يرق إلى المستوى المطلوب ولم يثبت وجوده على الساحة الأكاديمية من خلال إقامة الدراسات وتوجيه البحوث في خدمة المجتمع.
- أن الضعف مرتبط بمنظومة التكوين والتي هي تحصيل حاصل عن تأزم الواقع على كل الأصعدة.
- انهيار منظومة القيم عن طريق الجهل بقيمة العلم كقيمة اجتماعية حضارية.
- الافتقار للدراسات الميدانية الواقعية لأن أغلب الدراسات تعتمد على وسائل نظرية ومنهجية يغلب عليها طابع التقليد.
- أن أغلب الدراسات تعتمد في طبيعتها على المجتمعات الغربية ولا تتم الإشارة إلا من خلال وقائع بسيطة إلى الواقع الاجتماعي العربي بما يحمله من خصوصية.
- ينظر إلى اختصاص علم الاجتماع بنظرة دونية وأن قياس توجيه الطلبة يتم لذوي المستوى المتوسط.
- أن أغلب البحوث السوسولوجية تظل سجينه الرفوف في المكتبات وحتى توصيات الملتقيات والمؤتمرات تظل حبيسة المختبرات والجامعات وعلى هذا الأساس يوصى الباحث بما يلي :
- يستوجب على الباحث الجزائري تجاوز فكرة أن العلوم الاجتماعية نتاج إنساني عام وأنها ثمرة التقدم التكنولوجي والمادي الذي يجب الخضوع له وتقليده بحجة حتمية العولمة وأنه يتجاوز خصوصية مجتمعه العقائدي، الفكري والثقافي.
- دعم وتحفيز نظريات علماء الاجتماع العرب وتبني كل أفكارهم التي من الممكن أن تعود بالنفع على مجتمعا.
- إلزامية البحث والنشر العلمي (إنتاج المعرفة) للأستاذ كأحد المهام الأساسية التي ينبغي الإطلاع بها حسب الدرجات.
- إنشاء بنك المعلومات ومعطيات وبيانات تشمل جميع المنشورات والدوريات الصادرة بالجزائر.
- الاعتماد على الوزن التأثيري المعرفي أو عامل التأثير (facteur d'impact) ويحسب بعدد مرات الاستشهاد بالمقال المنشور في مقالات أخرى لمدة معينة من أجل تقييم الجودة.

- تفعيل المحابر العلمية وتحريرها من قبضة التسيير الإداري.
- تتمين ما ينتج وطنيا وتجاوز العائق النفسي.
- العمل على إقامة شراكة وطنية بين المشاريع البحثية.
- ضرورة استحداث نمط جديد يأخذ في الحسبان وضع هيكل تنظيمي للبحوث الجامعية قصد تحريرها ولا تبقى حبيسة الرفوف.

وما يمكن قوله في الأخير أن الحالة الراهنة لعلم الاجتماع في الجزائر ليست أبدية، وإنما هي حالة يمكن تجاوزها وإن كان الطريق شاقا سيتوجب المثابرة والصبر على الصعاب ليصل هذا العلم إلى مثيله في المجتمعات الأخرى

قائمة المصادر والمراجع:

- 1 (مصطفى ناجي :علم الاجتماع في الوطن العربي بين المحلية والدولية، مجلة العلوم الاجتماعية، المجلد 15، العدد 2، 1987، ص 181 .
- 2)عبد العالي دبله :مدخل إلى علم التحليل السوسولوجي، دار الخلدونية للنشر والتوزيع، الجزائر،2011،ص5 .
- 3) فضيل دليو وآخرون :أسس المنهجية في العلوم الاجتماعية، دار البحث، قسنطينة، الجزائر، 1999، ص 69 .
- 4) أنتوني غيدنر :علم الاجتماع، ترجمة فايز الصياح، ط 5، بيروت، المنطقة العربية للترجمة، مركز دراسات الوحدة العربية، 2005، ص 17.
- 5) عاطف غيث :دراسات في تاريخ التفكير واتجاهات التنظير في علم الاجتماع، بيروت، دار النهضة العربية، 1975، ص438.
- 6) عبد الله محمد عبد الرحمان :علم الاجتماع النشأة والتطور، ب ط، دار المعرفة الجامعية، الاسكندرية، 2003، ص 38 .
- 7)- فضيل دليو :علم الاجتماع المعاصر بين العالمية والخصوصية، موقع الشباب للإعلام، مقال منشور بتاريخ 18 / 02 / 2006 في الموقع www.chabab.net/modules تم استرجاعه بتاريخ 2014/11/17 على الساعة 12.
- 8) محمود عرابي :تأثير العولمة على ثقافة الشباب، الدار الثقافية للنشر، القاهرة، 2006، ص 33 .
- 9) فضيل دليو :علم الاجتماع المعاصر، ثنائية النظرية والمنهجية، طبعة 2001، مؤسسة الزهراء، قسنطينة، الجزائر، ص 26 .
- 10) أحمد مجدي حجازي: علم الاجتماع مشوه في الوطن العربي ولا يمثل قيمة للحكومات، مقال منشور في جريدة البديل، الجمهورية العربية المصرية، تم استرجاعه من الموقع Elbadil.com بتاريخ 18 / 11 / 2014 .
- 11) صافر كريمة، رجائي نعيمة :مجتمع المعرفة والبحث العلمي، دار ابن بطوطة للنشر والتوزيع، ط1، الأردن، 2013، ص 39 .
- 12) منتديات طلبة الجزائر :موقع <http://etudian.dz> تم استرجاعه بتاريخ 15 / 10 / 2014 على الساعة 20.00 .
- 13) جمال معتوق :السوسولوجيا الكولونيالية من أجل قراءة نقدية جديدة، مجلة آفاق لعلم الاجتماع، العدد1، البليدة 2001 ص 07 .

14) السوسيولوجيا الكولونيلية من الموقع

http://sociologienek.blogspot.com/2012/06/blog_06html تم استرجاعه بتاريخ 2014/10/25

على الساعة 20.30 .

15) جمال معتوق: علم الاجتماع في الجزائر من النشأة إلى يومنا هذا، دون دان نشر، ط 2006، ص 19 .

16) جمال معتوق، واقع وآفاق علم الاجتماع في المغرب العربي، (عمل غير منشور)، أطروحة دكتوراه دولة، قسم علم الاجتماع جامعة الجزائر 1999، 2000، ص 81 .

17) جمال معتوق: مرجع سبق ذكره، ص 85.

18) جمال معتوق : نفس المرجع، ص 285 .

19) رضوان السيد :مشكلات البحث الاجتماعي العربي، مجلة الفكر العربي سنة 6، 1985، ص 7 .

20) يوسف حنطلي :علم الاجتماع في الوطن العربي بين الفكر المفروض والواقع المفروض (عمل غير منشور) رسالة ماجستير، قسم علم الاجتماع جامعة الجزائر .

21) عبد الباسط عبد المعطي :نحو علم الاجتماع عربي، علم الاجتماع والمشكلات الاجتماعية، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ص 387.

22) مراد الزعيمي :دراسات نقدية، علم الاجتماع رؤية نقدية، جامعة منتوري، قسنطينة، مخبر علم الاجتماع و الاتصال، 2004، ص 45 . 46 .

23) عبد الكريم بن أعراب: ورقة مقدمة للبحث العالمي الرابع، كلية العلوم الاقتصادية وعلوم التسيير، جامعة منتوري، قسنطينة، الجزائر، 14 ديسمبر 2006 .